بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد للّه الذى ميز بنى الإنسان على غيرهم من مخلوقاته - فأعطاهم الحكمة النابعة من القلب قبل العقل. كما منحهم القوة والضعف فى النفس الأمارة بالسوء (إلا من رحم ربى) وجعل بينهما الصبر على المكاره وتحمل الأزمات والمشاق .. كمعبر آمن لهذه النفس ، وصلاة وسلامًا على نبينا الكريم محمد بن عبد اللّه خير المؤمنين وخير الصابرين .

وبعد ..

فإن هذا الكتاب الذى احتسبناه للّه تعالى.. إنما هو مشاركة صادقة من أحد عباده .. فى الدعوة لتحمل مصائب الدنيا ونكباتها التى تعصف بالإنسان من دون علمه .. وتصيبه فى نفسه أو ماله أو ولده .. وهى كذلك دعوة مخلصة لكل صاحب مصيبة لكى يتمسك بحبل اللّه ويصبر ولا يجزع .. وذلك مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥، ٦].

فكم من الخلق الذين واجهوا الشدائد والمصائب ، كادوا ينحرفون عن طريق اللّه القويم .. إما بأسًا وإما يأسًا .. وقد لعن اللّه الشيطان الذى يجد فى مصائب خلق اللّه متسعًا من المكان والزمان .. لكى يؤكد ما أصر عليه منذ أن طرد من رحمة اللّه .. بأن يقعد لعباد اللّه كل مرصد .. وأن يزين لهم سوء أعمالهم.

ومما دفعنا إلى وضع هذه الأوراق.. هو شد أزر كل صاحب مصيبة فيما ابتلاه رب العالمين رغمًا عنه .. ذلك لأن الابتلاء هو أحد سنن اللّه فى خلقه ..

يجريه على عباده لأجل الاختبار.. وقد خلقه اللّه مرادفًا لخلق الإنسان ذاته.. ليميز به الخبيث من الطيب.

وهناك المئات ، بل الآلاف من الأمثلة التى أجراها رب العزة على عباده فى حال الابتلاء ، والذى لم ينجُ منه أحد حتى أصفياؤه من الأنبياء والرسل.

وكاتب هذه السطور.. من بين عباد اللّه الذين ذاقوا مرارة هذا الابتلاء.. وعايشوه.. واكتووا بناره الحارقة ، ولولا فضل اللّه ورحمته ، إلى جانب تمسكه بحبل اللّه المتين ، لفعل به هذا الابتلاء أفاعيل قوية وقاسية ، كانت ربما تؤدى به إلى الهلاك ، هلاك النفس والمال والولد.. بعد هلاك الزوجة.

ولقد أخذ الشيطان يلعب برأسه طويلاً.. مستغلا فى هذا الأمر هذه المصيبة الكبرى التى اغتالته وأولاده بلا سابق إنذار.. وكان مدخل الشيطان إلى نفسه ، العقل قبل القلب ، وهذه الأسئلة التى كان فى ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب.. وكان هذا اللعين منذ الصباح وحتى المساء.. بل وفى جوف الليل ، يضع مئات الأسئلة والاستفسارات التى كانت تحتاج إلى ملايين الكلمات والعبارات.

وكان كثيرًا ما يسمع فى السر والعلن ، وبصوت مرتفع وآخر منخفض.. لماذا زوجك أنت بالذات ، وقد أصبح أولادك أيتامًا ؟ وماذا ستفعل مع نفسك وحياتك صارت بلا شريك ؟ وماذا ستفعل مع هؤلاء الذين من حولك والذين يتربصون بك وبأهلك من كل جانب؟!.. وماذا أنت فاعل وحدك فى هذه الأزمة؟!.

وبقى من ذلك أعظم سؤال ، وجواب فى الوقت نفسه ، حين انفرد الشيطان بالنفس.. ووسوس لها بالارتماء فى أحضانه والسير وراء خطواته داخل مواكب الرذيلة ، واتباع هوى الشهوات؛ لتحقيق النسيان المفقود ، والسعادة الزائفة.

ويا له من مطلب سهل ، وضعه الشيطان الملعون فى طريق نفسى بكل خبث

وذكاء.. وكادت تلك النفس الملتاعة أن تنحدر إلى تلك الهوة السحيقة التى حفرها بأظافيره ذلك الشيطان الرجيم ، لولا فضل اللَّه ورحمته اللذان تدخلا ونزلا من السماء ، واللذان تجليا فى صورشتى ، كان من أعظمها تذكر الصبر والصابرين.. وكذلك دعوات المحبين له ممن كانوا حوله آنذاك.

إن المصائب ، ياأيها الإنسان الملتاع ، تأتيك بلا استئذان ؛ إذ تسقط فوق رؤوسنا سقوط الأمطار الحمضية.. وهى لا تميز - حين يسوقها رب العالمين على سبيل الاختبار - بين مؤمن قوى الإيمان وآخر إيمانه ضعيف.. كذلك فهى لا تميز أيضًا بين غنى وفقير، أو بين جنس دون آخر.. كما أنها لا تملك التمييز بين المال والنفس والأولاد.

ولقد ابتلى اللَّه بها عباده جميعًا ، وذلك ليكشف ما فى صدورهم وهو عليم بما فيها من صبر وإيمان وتسليم . فى رضى . بالقضاء والقدر.. ولكن هناك من الناس من يجزع ويحزن.. وينقلب على نفسه.. فيلجأ إلى الشيطان عساه أن يجد عنده الفرج!. وفى المقابل هناك أيضًا من يصبر ويشكر ويتقبل البلاء فى رضا وتسليم ، فيزداد إيمانه ويعوضه اللَّه خيرًا مما ابتلى فيه.

ولسوف نتعجب حين نعرف أن عباد اللَّه المصطفين الأخيار من الأنبياء والرسل كانوا أكثر الناس تعرضًا للبلاء والمصائب ، خاصة التى يعجز الإنسان العادى عن مواجهتها.. ولولا فضل اللَّه على هؤلاء الرسل الذين اختبرهم بالابتلاء، لأدركهم أيضًا الشيطان.. ولاقتربوا من الخسران المبين ، ولكنه ثبت قلوبهم وملأ صدورهم بالإيمان والصبر وتقبل المكتوب ، فتحملوا ما نزل بهم. وخرجوا من هذا الاختبار سالمين غانمين.. وبذلك يكونون قدوة لغيرهم من عباد اللَّه الذين يتأسون بهم. فينالهم الصبر على الابتلاء.. وقد نظن أن الابتلاء مقصور فقط على نزول البلايا والمصائب والشدائد ، بل فيه وفق إجماع المفسرين شق آخر يرتبط بالخير فى حياة الإنسان.. حيث يصير ذلك الإنسان فى نعمة وغنى وصحة.

وأيضًا بهدف الاختبار ومعرفة من يشكر ومن يكفر بهذه النعم.. وإن كان الشق الأول المرتبط بالشدة والمصيبة يكون فيه الجزاء الأكبر؛ لأنه يتطلب صبرًا أكثر قبولا ورضًا بلا مناقشة أو اعتراض.. والعجيب فى الأمر أن معظم أنبياء اللَّه ورسله.. كان من نصيبهم فى أغلب الأحيان.. الابتلاء بالشدائد والمحن.. ومع ذلك صبروا.. شاكرين نعمة ربهم، فجزاهم اللَّه نعم الجزاء.

ولقد تراوحت هذه الكوارث وهذه المحن والمصائب فى حياة هؤلاء الرسل وهؤلاء الأنبياء ما بين إصابة النفس بالأمراض أو الاغتراب أو التفريق، وبين الإصابة فى الأهل والأولاد سواء بالفقدان أو بالرحيل.. فيالهول ما قابله هؤلاء العباد المصطفون الأخيار.. وما أشد ما تحملوه من مشاق، استسلامًا لأمر اللَّه وإرادته.. وكانت النتيجة عظيمة حين صبروا، فنالوا جزاء طيبًا وعوضهم اللَّه عمَّا فقدوه.

ولنا أن نعقد ولو مقارنة بسيطة بين ما يقابلنا من مصائب وكوارث وابتلاءات شتى، وبين ما لاقاه هؤلاء العباد المصطفون من الأنبياء والرسل، ومن بعد هذه المقارنة.. علينا أن نتساءل وبهدوء.. كيف صبروا؟!. وكيف صبرنا؟! ثم كيف جزاهم اللَّه به. وماذا ينالنا من الجزاء.. خاصة إن لم نصبر؟!

ولقد أثبتت التجارب أنه فئة كبيرة من عباد اللَّه يغفلون عن اللَّه ورحمته فى ظل أزمة أو كارثة - ولو ضعيفة التأثير - يقابلونها.. فما بالنا بمن يمر بأزمة أو مصيبة أو كارثة.. من النوع الثقيل الذى سوف نراه ونعيشه حين نلتقى بهؤلاء الأنبياء والرسل الصابرين الذين ابتلاهم اللَّه بهذا الكم الكبير من الشدائد!.. وقد وصفهم اللَّه بأنهم من أولى العزم من الرسل..

وكما هو معروف فإن الكتب المقدسة وعلى رأسها القرآن الكريم قد ذكرت لنا أن هناك المئات من الرسل ومن الأنبياء الذين ذكرهم اللَّه فى هذه الكتب..

وهناك إلى جانب ذلك أضعاف هذا العدد من الأنبياء والرسل الذين لم يذكر اللَّه أسماءهم لحكمة.. لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى.

ولقد اكتشفنا وفق رؤيتنا التى سوف نسردها فوق هذه الأوراق أن هناك عشرة من الرسل ومن الأنبياء الذين واجهوا الشدائد فى حياتهم أثناء تبليغهم رسالة السماء.. وكانت بالفعل من أعظم ما واجهه البشر من كوارث ومصائب، وقد انفرجت بفضل اللَّه، وبرحمته.. بعدما صبر هؤلاء الرسل خاصة أولى العزم منهم.

ويبدو أن حكمة اللَّه قد تجلت لعباده.. من الذين يطلعون على تفاصيل هذه الشدائد التى مر بها عباده المصطفون الأخيار.. ذلك لأجل أن يصبروا هم أيضًا حين يواجهون الكوارث والشدائد.. والتى لا تصل أبدًا فى قوتها وشدتها إلى درجة ما وصل إليه هؤلاء الأنبياء.. وتلك هى الغاية الكبرى والهدف الأسمى من وراء سرد القصص القرآنى.. فيما يخص هؤلاء الأنبياء والرسل..

وحين نستعرض معًا قصص هؤلاء الصابرين من عباد اللَّه من الرسل والأنبياء الذين اختبرهم اللَّه بالابتلاء، نجدهم عشرة.. هم بالترتيب الزمنى لظهورهم ورسالاتهم السماوية.. سيدنا آدم عليه السلام، سيدنا نوح عليه السلام، سيدنا إبراهيم عليه السلام، سيدنا لوط عليه السلام، سيدنا يعقوب عليه السلام، سيدنا يوسف عليه السلام، سيدنا أيوب عليه السلام، سيدنا موسى عليه السلام، سيدنا يونس عليه السلام وأخيرًا سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

ولقد رأينا - من قبل الحديث عن هؤلاء الأنبياء والرسل وما واجهوه من كوارث ومصائب وشدائد لا يستطيع أن يتحملها أناس غيرهم - ضرورة أن نتحدث عن الابتلاء بمفهومه الواسع لغويًّا ودينيًّا سواء فى كتب اللغويات أو فى القرآن الكريم وفى الأحاديث النبوية.. وذلك على سبيل تمهيد النفس والعقل لتقبل ما هو

آت من حوادث جرت فى حياة هؤلاء الأنبياء ، وصبروا ثم جزاهم اللَّه بالشكر والنعم الكثيرة٠٠ كما رأينا كذلك من الضرورى بيان الفرق بين النبى والرسول ، مع إلقاء الأضواء المبهرة على حياة هؤلاء الذين اختصهم اللَّه بالصبر ، وامتحنهم بالبلاء الشديد٠٠ وربما من أجل ذلك سوف نقترب بعض المسافات من قصص الأنبياء٠٠ كما صورها لنا القرآن الكريم وكما جاءت فى بعض الكتب المقدسة والتفاسير المختلفة ، وحتى تكتمل الفائدة ، ونخرج بالبيان الوافى الذى يعين الإنسان على اجتياز ما يمر به من محن وشدائد٠٠ واللَّه هو الموفق ، والهادى إلى سواء السبيل٠٠٠

* * *

تمهيد

الابتلاء... فى القرآن والسنة

ونبدأ بالذى هو خير.. القرآن الكريم.. وما جاء به من آيات بينات بخصوص الابتلاء.. فى حياة البشر جميعًا.. إذ قال رب العالمين فى هذا الكتاب العزيز:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وبالنظر إلى الآيات السابقات.. ومع التمعن والتدبر.. نلاحظ أن اللّه - سبحانه وتعالى.. قد يبتلى عباده اختبارًا لهم.. وقد فضلنا أن نبدأ الحديث من هذه الزاوية رغم أن هذه الأوراق إنما خصصناها لحديث الابتلاء فى حياة الأنبياء والرسل من عباد اللّه.. حيث لم يفرق رب العالمين بين عباده فى هذا الأمر - بل وكما سيمر علينا - سنلاحظ أن عباد الرحمن من الأنبياء والرسل كانوا أكثر هؤلاء العباد على الإطلاق ابتلاء.. خاصة فى جانب الشدة والعسرة والضيق!.

ولقد حفل القرآن الكريم بالعشرات من صور الابتلاء فى حياة الإنسان.. خاصة الابتلاء المرتبط بالمصاعب والمشاكل والعقبات، دون الابتلاء بالخير.. ذلك لأن الابتلاء بالشدة يتطلب من الإنسان الصبر.. كما أن فيه اختبارًا للقدرات والنوايا والعزيمة والإرادة، وحسن استقبال الإنسان لما ينزله اللّه عليه من مصائب قد قدرها تقديرًا، بل وكتبت عليه من قبل أن يولد ويواجه الدنيا بحلوها ومرها.

ولعل من أكثر آيات القرآن الكريم التى تحدثت عن الابتلاء فى جانبه الشاق والمرتبط بالصبر.. ما ذكره رب العزة فى هذه الآيات..

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٤٩] .

﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥] .

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِن الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِن الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾
[آل عمران: ١٨٦]

﴿ وَلَكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨] .

﴿ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٣] .

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧] .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا ﴾
[الكهف: ٧]

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١] .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢] .

﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي ﴾ [الفجر: ١٥ ، ١٦].

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١]

﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] ٠

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢]

ومن عجيب ما مر علينا من كلمات أنزلها رب العالمين على قلب نبيه الأمين محمد - عليه الصلاة والسلام ٠٠ أننا وغيرنا لم نلحظ ٠٠ وجود نوع من التفرقة فيما ينزله اللَّه تعالى من بلاء على عباده أجمعين ٠٠ بل ولقد يصيب اللَّه كل العباد بهذا الابتلاء ٠٠ بغية اكتشاف ما فى الصدور من صبر وتحمل وإيمان بما ينزله اللَّه من السماء بحلوه ومره وإن كان رب العزة قد اختص عباده الأصفياء من الأنبياء والرسل بطلب لم ينل شرفه إلا هم ٠٠ وذلك حين قال رب العالمين موجهًا حديثه إلى النبى الكريم محمد - عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ٠ وهذا يعنى أن الابتلاء مرادفه الصبر، فما بالنا إذا ما طلب ربنا من عباده الأصفياء أن يصبروا على ما أوذوا وما يقابلهم من شدة ومشاكل وأمام ذلك أليس من الواجب أن نصبر نحن البشر أيضًا على ما يواجهنا من صعاب مثلما صبروا؟!٠٠ والاصطبار على الابتلاء ٠٠ خصص اللَّه تعالى له ألونًا من المكافآت ٠٠ ربما ينالها عبده الصبور فى الدنيا وربما فى الآخرة٠ وربما فى الدارين معًا٠

ولسوف يمر علينا كيف نال هؤلاء الأنبياء المبتلون من المكافآت الطيبة فى حياتهم الدنيا وفى الآخرة جزاء ما صبروا وما تحملوا ، فقد تقبلوا قضاء اللَّه وقدره فى سكينة واستسلام ٠

وكذلك من عجيب الأمر فى هذا القرآن العظيم ٠٠ وجود العشرات من الآيات القرآنية التى تحض البشر على الصبر وتدعوهم إلى قوة التحمل - بل وتنبئهم بالفوز الكبير إذا ما صبروا - وكيف لا يصبرون وكل شىء بيد اللَّه تعالى ٠٠ الذى خلق السموات والأرض وخلق كل شىء ٠٠ بل وخلق البأساء والضراء ٠

ومن بين آيات الصبر العديدة التى يمتلئ بها المصحف الشريف نورد بعضها٠٠ حتى تكتمل الفائدة٠٠ ومن رأينا أن الابتلاء بمعناه الواسع ٠٠ لابد وأن يعقبه الصبر الذى حثنا عليه رب العالمين ٠٠ وهذا الصبر الذى إذا ما نالـه أحد منا٠٠ فقد فاز فوزا عظيمًا ، ويكفى عباد اللَّه شرفا أن اللَّه نبأهم بأنه مع الصابرين٠

ومن آيات الصبر نورد بعضها ، قال رب العالمين: ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾[البقرة: ١٥٣]٠

﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ** ﴾

[البقرة: ٤٥]

﴿ **قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُو اللَّهِ كَمْ مِن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾[البقرة: ٢٤٩]٠

﴿ **الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ** ﴾

[آل عمران: ١٧]

﴿ **وَكَأَيِّن مِن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** ﴾[آل عمران: ١٤٦]٠

﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾

[آل عمران: ٢]

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١].

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣].

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وأيضًا لو تدبرنا هذه الآيات وأمعنا فى معانيها العقل والقلب.. سوف نعرف تمامًا كيف جعل رب العزة الصبر مكافأة طيبة لعباده الذين تحملوا البأساء.. ونجحوا فى الاختبار الذى نزل عليهم من السماء فى صور شتى.. بعضها إيذاء فى النفس كالابتلاء بالمرض والذل والهوان والغربة والضعف ، والبعض الآخر فى الأموال وفى الأولاد والثمرات.

هذه المكافآت الربانية لم يجعلها اللَّه لصنف من عباده دون الآخر بل جعلها لكل عباده الذين يبتلون بالمحن ، ويخرجون منها سالمين غانمين لإيمانهم باللَّه وبحكمته وحسن تدبيره.

ولقد أثبتت الأحداث أن الأنبياء والرسل من عباد اللَّه الصالحين كانوا هم أكثر عباد اللَّه تحملاً وصبرًا على المكاره والأزمات والمشاكل ، ولقد جزاهم اللَّه خير الجزاء نظير صبرهم الجميل. ولسوف يمر علينا أيضا قبس من نور هؤلاء الأنبياء الذين صبروا على ما واجهوه من صعوبات سواء بسبب دعوتهم إلى اللَّه بالحق ، أو بسبب كونهم بشرًا أراد رب العزة أن يختبر قوة عزيمتهم وحسن إيمانهم رغم كونهم من عباده المصطفين الأخيار.

وقد وصف اللَّه تعالى بعض هؤلاء الرسل بأنهم من أولى العزم فى مقابل البعض الآخر الذين لم يكن لهم نصيب من هذا العزم ، وهناك بعض المفسرين والعلماء قد حددوا هؤلاء الأنبياء والرسل من أصحاب العزيمة القوية.. فقالوا: إن هؤلاء الرسل هم: نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ـ عليهم أفضل الصلاة والسلام.

وكذلك منهم من حدد لنا عدد هؤلاء الأنبياء والرسل وفق ما جاء فى القرآن الكريم الذى ذكر أن عددهم خمسة وعشرون رسولاً ونبيًّا ذكرهم بأسمائهم منهم ثمانية عشر وردت أسماؤهم فى أربع آيات متتاليات فى سورة الأنعام ، كما ذكر هؤلاء العلماء أن عدد الرسل قد بلغ مائة وأربعة وعشرين ألفًا ، هؤلاء أنزل عليهم مائة صحيفة وأربعة كتب ، فقد أنزل على آدم عشر صحائف وعلى شيث خمسون صحيفة وعلى إدريس ثلاث صحف وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان[1].

ورغم هذا العدد الكبير سواء من الذين ذكرهم القرآن الكريم أو ما جاء به المفسرون والعلماء من اجتهادات.. فقد وقع اختيارنا كما أسلفنا من قبل على عشرة من أنبياء اللَّه ورسله من الذين واجهوا البلاء بالصبر فى حياتهم وكان جزاؤهم عظيمًا فى الدنيا والآخرة.

ولسوف تزيد قناعتنا وأنتم معنا بطبيعة الحال بهؤلاء من الذين واجهوا الابتلاء.. حين نستعرض معًا أسماء الرسل والأنبياء.. وهم بالترتيب الزمنى.. وبترتيب ما سوف نتناوله فى هذه الأوراق: سيدنا آدم عليه السلام الذى ابتلاه اللَّه فى نفسه وفى ولده ، وسيدنا نوح عليه السلام الذى ابتلاه ربه فى ولده وزوجته ، وسيدنا إبراهيم الخليل الذى ابتلاه ربه فى نفسه وفى ولده ، وسيدنا لوط الذى ابتلاه ربه فى نفسه ، وسيدنا يعقوب الذى ابتلى فى نفسه وفى أولاده ، وسيدنا يوسف الذى

---

(١) مناهج أولى العزم من الرسل فى تبليغ الدعوة – د. عبد الوهاب عبد العاطى.

ابتلى فى نفسه وفى أسرته ، وسيدنا أيوب الذى ابتلاه رب العزة فى ماله وفى نفسه وفى أهله ، وسيدنا يونس الذى ابتلاه ربه فى نفسه ، وكذلك سيدنا موسى الذى ابتلاه ربه فى نفسه أيضًا.. وأخيرًا سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - الذى ابتلاه ربه فى نفسه وفى ماله وفى أهله كذلك.

هؤلاء الصفوة من الرسل والأنبياء كانوا أشد الناس ابتلاء.. ورغم ذلك فقد كانوا - صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين - صابرين شاكرين ، محتسبين ، راضين بقضاء اللَّه فيهم.. يسكنون إلى اللَّه فى تضرع ودعاء.. ونراهم فى خشوع وخضوع وصبر ، دائمًا عاملين لوجه اللَّه تعالى ناهضين بالهمم على الدوام لا يفترون ولا يكسلون ولا يتواكلون[1].

وكما أوضحنا من قبل أن الابتلاء قرين الصبر.. فإننا نؤكد كذلك أن الوسيلة الوحيدة التى يلجأ إليها العبد سواء كان من الأنبياء والرسل أو من عباد اللَّه الصالحين من غير هؤلاء هى الدعاء.. إذ يجب على من تطوله أية بادرة من بوادر الابتلاء بأنواعه أن يصبر أولاً.. ثم يدعو ربه أن يكشف عنه ما أصابه!.

ولقد أثبتت حوادث التاريخ أن عباد اللَّه الصالحين والمصطفين الأخيار من الأنبياء ومن الرسل كانوا يتمسكون بالصبر على البلاء.. ثم يدعون اللَّه أن يخفف عنهم ما أصابهم.. أو يزيحه! ، وذلك لإيمانهم بأن الدعاء هو مخ العبادة ، وهو الوسيلة التى يناجون بها رب العزة فى علاه كى يخفف عنهم ما نزل بهم من بلايا!.

ولا شك أن مرحلة الصبر والدعاء تأتى حتمًا إذا ما آمن العبد بأن كل شىء بيد اللَّه ، بعد مرحلة الرضى.. وهى كما يقول العلماء: منزلة تفوق الصبر فى ميزان حسنات المبتلين يوم القيامة.

---

(١) الابتلاء والدعاء ، أحمد الموفى ، كتاب اليوم.

وكما حفل القرآن الكريم بالعديد من الآيات الكريمة فيما يتعلق بالابتلاء والصبر عليه ، كذلك حفلت السنة النبوية المطهرة بالابتلاء أيضًا حيث صور لنا رسولنا الكريم ﷺ حالات الابتلاء فى العديد من الأحاديث النبوية ، ومعظمها مرتبط فى معانيه بالصبر والرضا والخوف من عذاب اللَّه إذا ما غضب العبد مما أصابه من الابتلاء المقدر عليه سلفًا.

ومن أشهر ما قيل بشأن الصبر والبلاء ما جاء فى هذه الأحاديث النبوية الشريفة والتى جمعت فى كتاب «المنتخب من السنة» المجلد الأول... فى الباب التاسع والعشرين تحت عنوان «ابتلاء المؤمن».

«عن أبى هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول اللَّه ﷺ: «لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده ، وماله حتى يلقى اللَّه وما عليه خطيئة».

«وعنه أيضًا ، أن النبى ﷺ: سُئل أى الناس أشد بلاء؟ قال: «الأمثل فالأمثل...».

«وعن أبى عبد اللَّه بن كعب ، عن أبيه عن النبى ﷺ قال: مثل المؤمن كالخامة من الزرع تفيئها الريح مرة وتعللها مرة ، ومثل المنافق كالأرزة ، لا تزال حتى يكون انجفافها مرة واحدة» والمقصود بخامة الزرع كما جاء فى هذا الحديث: القصبة اللينة من الزرع ، وتفيئها الريح يعنى تحركها وتميلها يمينًا وشمالا ، والمقصود بالأرزة شجرة الصنوبر.. أما انجفافها مرة واحدة بمعنى انقلاعها وسقوطها دفعة واحدة.

والمعنى: أن المؤمن كثير الآلام والمحن فى بدنه وماله وأهله وكل ذلك يمر عليه ، وهو ثابت الإيمان فيكفِّر اللَّه سيئاته ويرفع درجاته ، وأما الكافر فقليل المصائب بالنسبة للمؤمن ، وإن وقع له شىء منها لا يتحمله ولا يصبر عليه ، وربما كانت سبب انتحاره ، ولا يكفر اللَّه له سيئاته ، بل يأتى بها يوم القيامة كاملة.

وفى كتاب رياض الصالحين للإمام الحافظ محيى الدين أبى زكريا يحيى ابن شرف النووى.. جاء ذكر الأحاديث النبوية عن البلاء والابتلاء.. فى باب الصبر.. ومما جاء فى ذلك:

« عن أبى يحيى صهيب بن سنان ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ».. رواه مسلم.

« وعن أبى سعيد وأبى هريرة - رضى اللَّه عنهما - عن النبى ﷺ قال: ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر اللَّه بها من خطاياه » متفق عليه.

« وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « من يرد اللَّه به خيرًا يُصب منه ».. رواه البخارى.

« وعن أبى عبد الرحمن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: كأنى أنظر إلى رسول اللَّه يحكى أن نبيا من الأنبياء صلوات اللَّه وسلامه عليهم ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يقول: اللَّهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون ».

« وعن أنس ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إذا أراد اللَّه بعبده خيرًا عجل له العقوبة فى الدنيا، وإذا أراد بعبده شرًّا أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة ».

وقال النبى ﷺ: « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن اللَّه تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط » رواه الترمذى، وقال: حديث حسن.

والحديث عن البلاء والابتلاء لا يكتمل فى معناه المطلوب.. إلا بالحديث عن المعنى اللغوى والمعنوى لهذين اللفظين!.. فالبلاء والابتلاء لهما معنى

واحد.. وهو الاختبار أو الامتحان.. ويكون بالخير والشر ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء : ٣٥] ولكن المراد هنا هو الابتلاء بالشر من مرض ومحن ومجاهدة عدو وخلافه. وهو سنة اللَّه فى خلقه وهو واقع على الناس جميعًا... أما البلاء والابتلاء فى معناه المعنوى فيقصد به زاويتان. الأولى أن الابتلاء غير محدد المدة.. ولا معروف النتائج مسبقًا!.. فقد يمكث ساعة أو يومًا أو شهرًا أو سنة أو غير ذلك!..

والإنسان حين يأتيه البلاء لا يعرف مقدار ما سوف يصيبه من خسائر أو مشاكل أو ما سوف يواجهه من صعوبات!..

والزاوية الثانية وهى الأكثر أهمية فى التعريف المعنوى للبلاء.. فنقصد بها أن البلاء يأتى فجأة وبلا مقدمات!.. ولذلك يطلق عليه الكثير من المفسرين ومن العلماء ألفاظًا كثيرة. مثل الكارثة والمصيبة والفجيعة.. نجانا اللَّه من هولها بالصبر والرضا وقوة التحمل حتى ننال جزاءها سواء فى الدنيا أو فى الآخرة.

ولنا فى سير الأنبياء والرسل الأسوة الحسنة التى تعيننا على مثل هذا التحمل.. لأنهم كما وصفهم رسولنا - الكريم - هم أكثر الناس ابتلاء فى الدنيا ، وربما كان ذلك لحكمة يعلمها اللَّه - رب العزة - وحتى يكونوا أمثلة حية لغيرهم من بنى البشر.. الذين يتعرضون فى حياتهم لمثل هذه البلايا.. ولا نجاة منها إلا بالصبر والرضا ، والتسليم ودعاء اللَّه أن يرفع عنا ما يصيبنا من بلايا سواء فى النفس أو فى الولد أو فى الأموال أو فى الثمرات!.

وختامًا لهذا التمهيد الذى سوف يعقبه حديث الشدة والبلاء فى حياة الأنبياء والرسل. سوف نسوق فى عجالة.. الفروق اللغوية بين ما هو المقصود بالنبى وبالرسول.. من واقع ما سرده غيرنا من المفسرين ومن المؤرخين ومن دارسى التاريخ.

فالنبى هو من نُبِّئ ، والنبأ هو الخبر العظيم الشأن ، ويصح معنى الفاعل فهو نبى أى مُنَبّأ عن اللَّه تعالى ، وبمعنى المفعول؛ لأن اللَّه أنبأه ما يقول فهو نبى ، وجمعها أنبياء٠ وبعض الأنبياء وصفوا أيضًا بأنهم رسل مرسلون؛ لقوله تعالى:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا ﴾

[مريم: ٥٤]

أما الرسول فقد قيل: إنه هو الذى أنزلت عليه رسالة ، أى كتاب من السماء مثل إبراهيم وموسى وداود وعيسى ومحمد - صلوات اللَّه عليهم أجمعين -٠

ولكن بعض الرسل لم ينزل عليهم كتاب ، مثل إسماعيل ولوط ويونس ، وكانوا جميعًا من المرسلين٠٠ ولم يأتوا بشريعة جديدة أو كتاب جديد ، ومن ثم قالوا : إن الرسل هم من كانوا ينزل عليهم الرسول الأمين جبريل عليه السلام٠٠ وأما الأنبياء ، فكانوا ممن يوحى إليهم بالرؤيا الصادقة٠ وكذلك قيل : إن الرسول هو المبتدئ بوضع الشرائع والأحكام ، والنبى هو الذى يحفظ شريعة غيره٠٠ لذلك قالوا: إن كل رسول نبى وليس كل نبى رسولا[1]٠

* * *

(١) قصص الأنبياء والتاريخ ، د٠ رشدى البدراوى ، جـ١٠

obeikandl.com